محنة ، وكثيرا ما يطرح هذا التساؤل في المواسم المأساوية . ولكن مأساة غسان لم تكن موسمية . وتلك حقيقة بسيطة لا يعيها الجميع . ومن هنا ، لم يتساءل غسان عن دوره . لقد مارس دوره بهذا الزواج الخلاق بين الحلم وبين قبضة اليد ، بين الكلمة وبين الخطوة . ولم تكن نهايته طلاقا لصحبة العمر او قدر العمر ، وانما كانت حفلة زفاف دموي لذلك الزواج التاريخي الذي لم تتح لنا الايام العاصفة فرصة الاحتفال به . هكذا التحمت نقطة النهاية مع نقطة البداية لتشكل دائرة رمزية متوهجة لتاريخ غسان كنفاني ولتاريخ شعب فلسطين ولتاريخ الصراع . كل الناس لاحظوا التشابه الرمزي الجارح حتى البكاء بين مأساة البداية ومأساة النهاية .. بين جسد غسان وبين جسد الوطن .. بين طريقة تمزيق غسان وبين طريقة تمزيق شعب ووطن . وغسان كنفاني نفسه كان يلاحظ هذا التشابه قبل وصوله الى حد التطبيق . لقد وصلت رؤياه الى النهاية قبل أن يصل جسده .

من هنا ، تكون حياة غسان درسا لا رمزا فقط . ليس الدرس الذي ينتظره الاعداء — النهي عن المسيرة ونشر الفزع في القلوب . ولكنه الدرس الذي ينتظره الثوريون الحقيقيون — تعميق الاصرار على الاستمرار ، وتحرير الرغبة في الانتقام من معناها القديم واغناؤها بمزيد من الالتزام الثوري الخلاق بالوطن والثورة ، لان مقتل غسان لا يعادله مقتل عدو مهما كبر ، لا يعادله الا المثابرة على تحقيق احلامه وأحلامنا التي نسفته . وهو درس لكل من يتعامل مع القلم الصادق ، لا الدرس الذي ينتظره الاعداء — تنصيب شبح اسرائيلي على عقل الكاتب ووجدانه . ولكنه الدرس الذي ينتظره الثوريون الحقيقيون — تحرير القلم من التردد ازاء النكسات ، وتحقيق الوحدة والتزاوج العميقين بين حركة الفكر والابداع وحركة الثورة . ان استشهاد أول كاتب فلسطيني منذ ما يزيد عن عشرين عاما لهو دليل ساطع على خطورة القلم في مسيرة الانسان الفلسطيني وعلى دوره الخلاق في المعركة من ناحية ، وهو دعوة للكتاب الى سد الفراغ الذي يتصور الاعداء أنهم قد خلقوه بغياب غسان كنفاني من ناحية أخرى .

لقد علمنا غسان دروسا كثيرة في الانسجام والصدق والاحتراق من أجل قضية قاتلة . وأول ما علمنا اياه هو أن الفلسطيني يفقد ذاته وحضوره الانساني في العالم والكون اذا كف عن أن يكون فلسطينيا . والفلسطينية ليست انتماء الوراثة والحنين الى أشياء ضائعة وانتظار الانبعاث العربي . الفلسطينية معناها ثورة ، وتغيير ، وتفجير، وابداع. ان غسان درس سياسي وأدبي واخلاقي معا . لم تذهب لحظة من حياته سدى . كان ملحمتين : ملحمة شعب ، وملحمة ابداع . لا تعرف أين يبدأ غسان الثائر وأن يبدأ غسان المبدع . ذلك لان الثورة الحقيقية والابداع الحقيقي معادلة واحدة . الثورة ابداع. والابداع ثورة . لقد اختار الموت المبدع تعبيرا مأساويا حتميا عن انتمائه الى الحياة . ولكنه لم يتمكن من اختيار الارض التي يموت فيها . هذه هي مأساته ، وهذه هي مأساتنا جميعا . وتلك هي الغصة الباقية مهما بلغنا من سعادة الموت الحقيقي المختار.

هذه هي المأساة

وهذه هي الوصية ...

لان موت غسان كنفاني ليس موت كاتب أو مناضل فقط .

انه انفجار قضية ..

قضية شعب ..

وقضية وطن .

محمود درويش